دور الدين في التحول الاجتماعي في إفريقيا

أ. أحمد محمد أحمد إسماعيل
باحث سوداني مهتم بالشؤون الإفريقية

حقق الإسلام تحولاً اجتماعياً كبيراً لدى الأفارقة، كان له انعكاساته في مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية، هذا التحول الاجتماعي أهلّهم لنقلة حضارية واسعة، فالممالك الصغيرة أصبحت إمبراطوريات كبيرة لها تواصلها مع بقية أرجاء المعمورة، بعد أن كانت ممالك مغمورة في المجاهل غير المكتشفة.

ووجدت الشعوب الإفريقية رسالة تتوحد حولها، وعقيدة تصوغ حياتها على أساسها، وتجاوز الولاء على هذه العقيدة حدود القبيلة الضيقة إلى آفاق أرحب في أرض الإسلام الواسعة، وامتدت أشواقهم نحو الشرق حيث مهبط الوحي، ومبعث الرسالة، وحَرَم الله الآمن، وأصبحت رحلة الحج إلى بيت الله الحرام واحدة من المعالم الاجتماعية والثقافية التي تميز شعوب القارة الإفريقية.

أولا : مدخل مفاهيمي:

١- مفهوم الدين:

الدين في لغة العرب يدور على معانٍ عدة؛ منها الطاعة، والعادة المتبوعة، والخضوع والإذلال، والحساب والجزاء، قال أبو حيّان: «الدين: ما يتدين به الرجل من إسلام وغيره، أو الطاعة أو العادة أو الجزاء أو الحساب أو السلطان... »[١].

وفي الاصطلاح؛ يختلف تعريفه بحسب ناحية النظر إليه، فعلماء الإسلام نظروا إلى الدين بوصفه المنهج المنزل من عند الله تعالى، قال أبو البقاء في كلياته: «الدين... يشمل أصول الشرائع وفروعها؛ لأنه عبارة عن وضع إلهي سائق لِذَوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذَّات، قلبياً كان أَو قالبياً، كالاعتقاد والعلم والصلاة»[٢].

أما الغربيون، من فلاسفة وعلماء اجتماع، فقد ذهبوا مذاهب شتى في تعريف الدين، تقوم على المنطلق الفكري لصاحب التعريف، فمثلاً نظر إليه تايلور في كتابه (المدنيات البدائية) كشكل مبسط للاعتقاد، فقال: «الدين هو الإيمان بكائنات روحية»، وعند أوجست كانط: «الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية»[٣].

وقد خلص الشيخ العلامة محمد عبد الله دراز، بعد مراجعته لتعريفات السابقين من علماء المسلمين، أو من الفلاسفة الباحثين الغربيين، وبعد تجريد النظر للدين من حيث الاعتقاد، بغضِّ النظر عن كونه صحيحاً أو فاسداً، إلى أنه: «الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة»، أو هو: «جملة من النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة من القواعد العملية التي ترسم طريقة عبادتها»[٤].

٢- مفهوم التحول الاجتماعي:

«التحول الاجتماعي» social transformation مصطلح دلالي، مرتبط بهيكلة المجتمع، وهو يشير إلى معنى أوسع من مجرد تغيير نمطي، ويعني: إعادة هيكلة جميع جوانب الحياة؛ من الثقافة إلى العلاقات الاجتماعية، ومن السياسة إلى الاقتصاد، ومن طريقة تفكيرنا إلى طريقة عيشنا.

وهو تحوّل شديد الوضوح، لا يشبه التغييرات النمطية التلقائية التي تطرأ على المجتمع، ولا يمكن ملاحظتها إلا عبر وقت طويل.. وذلك هو الفرق بينه وبين مصطلح آخر يُستخدم في علم الاجتماع، وهو «التغيير الاجتماعي» social change.

وإلى هذا أشار جون كينيث غالبيرث بقوله: «في معظم تاريخ البشرية، كانت وتيرة التغيير بطيئة للغاية، لا يمكن الشعور بأي تحولات في ظروف الحياة لعدة أجيال». ومع ذلك؛ «بمجرد صنع الأدوات واستخدامها بانتظام؛ أصبحت عاملاً في التطور البشري، ووضع حدود للسلوك، وفتح إمكانيات جديدة في المجالين العضوي والسلوكي».

ويُعرَّف «التحول الاجتماعي» بأنه: «تغيير أساسي في طريقة تنظيم المجتمعات وتوزيع الموارد، فإننا نميز خمسة أبعاد مترابطة- السياسية والاقتصادية والتكنولوجية والديموغرافية والثقافية- والتي تشكل معاً:

(١) أبو حيّان، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، المكتب الإسلامي، ط١-١٩٨٣م، (١/١٢٥).

(٢) الكفوي، الكليات، مؤسسة الرسالة- بيروت، ص٤٤٣.

(٣) محمد عبدالله دراز، الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم، ص (٣٤ إلى ٣٦).

(٤) المصدر السابق، ص٥٢.

المجال الاجتماعي»[1].

ومن أمثلة التحولات الاجتماعية التحول الذي أحدثه اكتشاف الأدوات والزراعة والصناعة في حياة الإنسان القديم، والتحولات التي أحدثتها الأديان، وما يحدثه قيام الدول والممالك، والدعوات الإصلاحية بمجتمعاتها، وأيضاً ما تحدثه الحروب الكبرى، والكوارث الطبيعة.

ثانيا: ديموغرافيا الأديان في إفريقيا:

يقطن في إفريقيا، بحسب تقديرات الأمم المتحدة للعام ٢٠٢٠م، حوالي مليار وثلاثمائة وأربعين مليوناً وخمسمائة وثمانية وتسعين ألف نسمة، منهم: مائتان وستة وأربعون مليوناً ومائتان واثنان وثلاثون ألف نسمة بشمال إفريقيا، بما نسبته ١٨,٣٧٪ من مجمل سكان إفريقيا، بينما يقطن حوالي مليار وأربعة وتسعين مليوناً وثلاثمائة وستة وستين ألف نسمة بإفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، بما نسبته ٨١,٦٤٪ من مجمل سكان إفريقيا[2].

ويتوزع أتباع الديانات في إفريقيا بين الإسلام والمسيحية، وهما أكبر ديانتين في القارة، بجانب أعداد قليلة من معتنقي اليهودية، والأديان والمذاهب الوضعية مثل البهائية، وغيرها.

وبحسب تقديرات مركز بيو الأمريكي للأبحاث؛ فإنه في عام ٢٠١٠م كان هناك (٨٢٢٧٢٠٠٠٠) شخص من جميع الأعمار يعيشون في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى. أكثر من (٦٣٪) من المسيحيين، و(٣٠٪) من المسلمين، وحوالي (٣٪) بغير دين، ونسبة مماثلة من أتباع الديانات الشعبية أو التقليدية- بما في ذلك الديانات التقليدية الإفريقية. ويشكل كلٌّ من الهندوس والبوذيين واليهود أقل من (١٪) من إجمالي سكان المنطقة، كما هو الحال مع أتباع الديانات الأخرى[3].

ويتركز وجود المسلمين في شمال إفريقيا وشرقها وغربها، بينما تتركز المسيحية في إفريقيا الجنوبية، وفي غرب إفريقيا ووسطها، وتنتشر الأديان المحلية الإفريقية بصورة كبيرة في وسط إفريقيا، وفي إفريقيا الجنوبية، وتوجد بشكلٍ ضعيف في بعض مناطق غرب إفريقيا ووسطها.

مشكلة إحصائيات الأديان في إفريقيا:

تمثّل الإحصائيات الدينية في إفريقيا إشكالية كبيرة أمام الباحثين في الأديان، فأغلب الدول الإفريقية تتجنب الإشارة إلى الدين في إحصاءاتها الرسمية، لطبيعة مجتمعاتها المختلطة أحياناً، وأحياناً لتبنيها نُسخاً من النظم العلمانية.

وعلى هذا الأساس؛ فإن أغلب الأرقام التي تحملها الأبحاث والأوراق، أو وسائل الإعلام، عن إحصائيات الأديان، ليست مستقاة من إحصاءات رسمية بواسطة الدولة المعنية، ولكن وفقاً لتقديرات أجرتها هيئات دولية، أو مؤسسات علمية، أو منظمات دينية... إلخ. ويخضع كل نوع من هذه الإحصاءات لطبيعة المعايير التي تنطلق منها المؤسسة أو الهيئة.

وبالنسبة للجهات ذات الصبغة الدينية؛ فإن

(١) Social Transformation, working paper, Hein de Haas, Sonja Fransen and Others, International Migration Institute Of Oxford University, july 2020.

(٢) United Nations, world pocketbook 2020 addition, New York 2020, pages 4,5,6.

(٣) Pew tamplation global religious futures project, http://www.globalreligiousfutures.org/regions/sub-saharan-africa.pdf?region_map_year=2020&region_map_religion=All%20Religious%20Groups

معايير اعتبار الشـــخص عضواً فيها يختلف من جهة لأخرى؛ حيث اعتبار الشـــخص مســـلماً له معيار محدد (يقتضي نطقه بالشهادتين، والتزامه بالإسلام، وانخلاعه التام عن أي دين آخر)، بينما لا تلقي الجهات المســـيحية الكنســـية بالاً كبيراً لانخلاع الشـــخص الوثني مثلاً عن دينه السابق، يكفي فقط إجراء التعميد عليه لاعتباره مسيحياً، وأحياناً تعتبر القبيلة بأكملها مســـيحية إذا ما تم تعميد زعيمها!.. ويساعد على هذا التصرف أن كثيراً من الأديان الإفريقية لا ترى غضاضة في أن يجمع الإنسان في عبادته بين أكثر من إله، وعلى هذا؛ فكثير ممن تعدهم الكنيســـة مسيحيين هم في الحقيقة لـــم يتخلوا عن وثنيتهم وأرواحيتهم، بل أضافوا إليها إلهاً جديداً ضمن الآلهة العديدة التي يعبدون.

وهناك عامل آخر، مؤثر جداً، خصوصاً فيما يتعلق بالتقديرات، واعتمادها على معدلات النمو، التي تضطرد منذ الحقبة الاســـتعمارية، وهو أن كثيراً من الدول الاستعمارية كانت تحتكر التعليم النظامي للإرساليات الكنسية، التي تشترط على من يريد أن يســـلك في مدارسه أن يتم تعميده، ويتخذ لنفســـه اسماً كنســـياً بدل اسمه القبلي، ولهذا فإن أغلـــب الطلاب وأســـرهم اعتبروها إجـــراءات لابد من مســـايرتها، مـــع احتفاظهم بأديانهم الســـابقة، حتى إن هـــذا الأمر اضطر إليه المسلمون أيضاً في بعض الدول والمناطق، مثل إفريقيا الوســـطى، وجنوب السودان وجبال النوبة[1]، حيث تجد الشـــخص يحمل اســـمين: اسمه العائلي، واسمه الكنسي (الرسمي).

ولهذا تجد اضطراباً كبيـــراً، وغير منطقي، في الإحصاءات المسيحية، وبخاصة الإحصاءات الأخيرة التي تشـــير إلى تقدم المســـيحية على الإسلام في إفريقيا!

ثالثاً: الدين في الموروث الثقافي والاجتماعي الإفريقي:

إفريقيا قارة متدينة بطبيعة الحال، وتتماهى فيها المكونات الاجتماعية مع العقائد والمفاهيم الدينيـــة، فالنظام الاجتماعـــي قائم على الدين، والديـــن جزء من الحياة اليوميـــة، بكل جوانبها، وكما يقال إن الإفريقي يحمل معه دينه في الحقل والصيـــد والحـــرب، وهو معه فـــي القرية وفي البيت.. وقديماً كانت الأســـاطير الوثنية ترتبط بنشأة القبيلة، التي دائماً ما ينتهي نسبها للإله!

يقول موريس دلافـــوس في كتابه (حضارات الزنـــوج في إفريقيا): «ما من نظام يشـــاهد بين قبائل إفريقيا السوداء، سواء كان نظاماً اجتماعياً أم سياسياً أم اقتصادياً، إلا وهو يرتكز على فكرة دينية، أو أن هو الدين حجـــر الزاوية فيه.. تلك الشـــعوب التي ظُن أحياناً أنها مجردة عن الفكرة الدينية؛ هي أشد شعوب الأرض تديناً»[2].

وتُعتبـــر «عبادة الأســـلاف» عنـــد الأفارقة الوثيين مثالاً شاخصاً لهذا التماهي في العلاقة بين الدين والتكوين الاجتماعي، فكثير من القبائل الوثنية في إفريقيا تعتقد أنّ حياة الشـــخص هي التي تحدّد أرواح الأســـلاف، فمثلاً؛ قبيلة الأكانا في غانا ترى أنّ الشخص كي يصير سلفاً؛ فلابدّ له من حياة سابقة، ذات قيمة وشرف، حتى يكون نموذجاً يمكن الاقتداء به، ويصبح ســـيرة ممتدة لغيره[3].

---

(١) اللتين كان يُطبق فيهما خلال الحقبة الاستعمارية ما يُعرف بقانون المناطق المقفولة.

(٢) نقله عنه هوبير ديشان، الديانات في إفريقيا السوداء، ترجمة أحمد صادق حمدي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١م.

(٣) كريم شفيق، معلومات عن خصائص الدين والسحر في إفريقيا، مقال منشور بموقع حفريات، بتاريخ ٢٠١٩/١٢/٢٨م: https://hafryat.com/ar/blog/8

وتكتسب القيادة الدينية عند القبائل الإفريقية مكان الصدارة الاجتماعية، فإليها تسلم قيادة القبيلة، فالساحر أو الكاهن هو القائد الحقيقي للقبيلة، حيث لا يقضي زعيم القبيلة بشيء دون الرجوع إليه.

وعندما جاء الإسلام إلى إفريقيا الوثنية، تقبله الأفارقة بسهولة لانسجامه مع الفطرة، التي لم يكونوا بعيدين عنها، بسبب ارتباطهم بالطبيعة ومظاهرها، لكونه لا يعرف فكرة الفصل بين الدين والحياة، كما هو الحال في معتقداتهم القديمة، ولكونه يقدم إجابات أكثر إقناعاً لتساؤلات الكون من معتقداتهم البسيطة الساذجة.

وبانتشار الإسلام في إفريقيا؛ صار الارتباط به في السياق الاجتماعي وثيقاً أكثر من ذي قبل، وأوسع مجالاً، حيث لم يعد السياج الاجتماعي هو سياج القبيلة فحسب، بل أصبح سياجاً شعوبياً وأمميـاً.. وأصبح القادة الدينيون هم القادة الحقيقيين للمجتمعات الإفريقية.

تتجلى سلطة الدين، تقليدياً كان أو سماوياً (بحسب التصنيف الشائع)، على المجتمع الإفريقي، بصورة واضحة في الموروث الثقافي والاجتماعي، على وجه الخصوص في إفريقيا الغربية، ويظهر ذلك في كثير من السمات، منها على سبيل المثال:

١- تأكيد الانتماء والارتباط بالمجتمع:

الإنسان الإفريقي اجتماعي بطبيعته، وتشكل هذه السمة كل حياته؛ ثقافته واعتقاده، وسلوكه وطقوسه. والأديان الإفريقية هي تعبير عن طريقة عيش العشيرة والقبيلة، وتماسكها الاجتماعي، الذي يشمل الأحياء والأموات، وحتى مظاهر الطبيعة من حولها، من حيوانات ونباتات، وأحجار وجبال.. إلخ.

بل إن الأساطير المتعلقة بالخلق، لدى كثير من القبائل والعشائر الإفريقية، تتخيل أن الخالق كان يعيش مع خلقه في مجتمع واحد، وفي علاقة قوية أشبه بعلاقة أبوية، وأن الانفصال بين الخالق وخلقه حدث بسبب تصرفات لبعض البشر لا يرضاها. من ذلك (أسطورة الخلق) عند قبيلة ميندي mende بغرب إفريقيا، و(أولدومير) Oldomare عند اليوربا في نيجيريا.

كما تسود تسمية الإله الخالق بـ«الجد» عند قبائل غرب إفريقيا الوثنية، يقول كوفي: «إن للجدّ عند قبائل غرب إفريقيا تقدير خاص، وتسمية الربّ بالجد توافق ذلك التقدير والتعظيم الذي يعطونه للرب، ولا يلزم من التسمية جعله بشرياً. ويُعد «الجد» عندهم رأس العائلة، وهو الشخص الذي ترجع إليه كل القضايا ليحكم فيها، ويحظى باحترام وتقدير كبيرين جداً، ويرسخ رؤساء القبائل وبقية الكبار فيها لهذه المفاهيم بنفس القدر، فإن تسمية الربّ بالجد الأكبر، أو السلف الأعظم منبثقة من الدور الذي يؤديه كرئيس وقائد أعلى للمجتمع[١].

وعند قبيلة الدوجون، في مالي، تعتبر كل أسرة بيتها معبداً، ورب الأسرة (جنا) Ginna هو كاهنها، أما الكاهن الأكبر للجماعة فيُعرف باسم «هوجون» Hogon، وهو مقدس لديهم، ويزعمون أن ثعباناً يُعرف باسم (ليبه) Le'be' يمثل الجد الأول[٢].

وعبادة الأسلاف تجسِّد الارتباط بالقبيلة والمجتمع، لدرجة اعتبار الموتى أحياء ولهم تصرفات، حتى في الطقوس التي تُسمى «إراقة الدماء»، التي تمارس للاتصال بالموتى، قبل أن

(١) انظر: عاصم محمد الحسن، الأديان التقليدية في غرب إفريقيا. – مجلة قراءات إفريقية – العدد الثالث – ذو الحجة ١٤٢٩هـ/ ديسمبر ٢٠٠٨م

(٢) هوبير ديشان، مرجع سابق، ص٥٢.

يشـــرب المرء منهم خمراً أو ماءً فإنه يريق بعضاً على الأرض، وقبل أن يأكل يلقي بلقمة من طعامه على الأرض، ويعتقد أنه بهذا قد أعطى سلفه ما يحتاج إليه من ماء أو خمر أو طعام.

ويعبّـر عـن إيمانهـم بهـذا الشاعـر السنغالـي براغو ديوب Brago Diop قائلاً:

إنهم ماتوا.. لم يذهبوا أبدا
إنهم هناك في الظلال الكثيفة
الموتى ليسوا تحت الأرض
إنهم في الأشجار حين تصدر حفيفا
إنهم في الأخشاب حين تصدر أنينا
إنهم في تلك المياه الجارية
إنهم في الأكواخ.. إنهم وسط الحشود

٢- الدين في السلوك الاجتماعي:

يتداخـل الدين مـع السـلوك الاجتماعي للإفريقي، بل إن الدين هو الأسـاس في تفسير النشـاطات الحيوية لبعض القبائـل الإفريقية، فقبيلة «الماسـاي» في شـرق إفريقيا- مثلاً- يعتقدون أن «خلق العالم يجري تناقله من عشيرة إلى أخـرى ومن جيـل إلى جيل، وطبقـاً لهذه الأسـاطير فإن الإله قد منح الماشـية ذات مرة لأحد أبنائه، وهو السـلف الذي تنتمي إليه قبيلة «الماساي»؛ وعليه فهم يُعدُّون أنفسهم مالكي كل الماشـية، ويرون أن الشـعوب الأخرى ليس لها الحق في امتلاك الماشية؛ ولذلك فإنهم يقومون بسـلب الماشـية من القبائل الأخرى؛ لأنها حق شرعي لهم»[(١)].

٣- تأثير الإسلام في الموروث الشعبي:

الإسـلام، كان قريباً من طبيعـة الإفريقي، لما يقدمه من نظام تشـريعي معجز، فالشعائر

الإسلام أحدث تأثيراً كبيراً في الثقافة الإفريقية، وشكل إلى حدٍّ كبير العادات والتقاليد الإفريقية

والمعامـلات تعتني بالمجتمع، وتدعم تماسـكه وترابطـه، بممارسـات عمليـة.. ولهـذا كانت العبادات الجماعية، مثل الصلاة والصيام والحج، من أكثر الأسباب التي أدت إلى انجذاب الأفارقة نحو الإسلام.. هذا بجانب التعاملات الاجتماعية في التجارة والبيع والشـراء، والصدقة والنفقة، التي كانوا يعايشـونها فـي تعاملاتهم مع التجار المسلمين الذين وفدوا إلى بلادهم.

ومع انتشار الإسلام، ودخول القبائل والعشائر الإفريقية فيه، تلاشـت كثير من العقائد الوثنية والأرواحية التي كانت سـائدة قبلـه، وإن بقيت بعض الطقوس والممارسـات متفشية حتى بين المسلمين، ولكن الإسلام أحدث تأثيرا كبيراً في الثقافة الإفريقية، وشـكّل إلى حدٍّ كبير العادات والتقاليد الإفريقيـة، وأصبح موضوعاً مهماً في الموروث الثقافي والاجتماعي.

بل أحدث أيضـاً نقلات كبيـرة، حتى على مستوى الأسـاطير المفسـرة لأصول القبائل؛ كالاحتفـاء بالحيوانات ومظاهـر الطبيعة عند القائلين بالطوطم.. فصـارت القبائل الإفريقية بعد اعتناقها الإسـلام تبحث عن أصول نشأتها في روايات تربطها بالأصول العربية، أو بنسـب الأنبياء، وتجعلها أصلاً يعود إليه نسـب القبيلة، فقبائل الفولاني- مثلاً- تُرجع نسبها إلى إبراهيم

(١) نجم الدين السنوسي، دور القبيلة في إفريقيا، مجلة قراءات إفريقية، العدد رقم (٨)، جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ - أبريل ٢٠١١م.

عليه السلام، وكثير من القبائل تحتفظ بروايات شعبية تُرجع نسبها للعباسيين أو الأمويين.

وتشتهر رواية عند قبيلة الهوسا تقول إن أصلهم رجل اسمه «بيازيد»، وهو ابن أمير بغداد، هاجر مع إخوةٍ له كثيرين، فانقسموا أربعين فرقة، اتجه بيازيد وحده بعشرين فرقة إلى مملكة برنو، حيث قام ملكها بتزويجه ابنته، ثم دب الخلاف بينهما، فهرب بيازيد بزوجته إلى مدينة «جبس» حيث تركها هناك لأنها كانت حبلى، فوضعت ولداً اسمه «برام»، أصبح فيما بعد أمير جبس، بينما واصل بيازيد هجرته حتى وصل مدينة «دورا» التي كانت تحكمها امرأة تُدعى «دوراما»، فتزوج من ابنتها، وأنجب منها ذرية أسست من بعده إمارات الهوسا السبع[١].

وتنتشر لدى كثير من القبائل الإفريقية، وبخاصة التي أسست الممالك في إفريقيا، رواية النسب العربي، حيث تسود رواية المسلم العربي الغريب، الذي يلجأ إلى القبيلة فاراً، فيتزوج فيها، ويحصل أبناؤه من بعده على السيادة والملك، نجد هذا الأمر لدى «الفونج» الذين أسسوا السلطنة الزرقاء في «سنار»، ولدى «الفور» الذين أسسوا مملكة «دارفور»، وكذلك لدى أمراء «برنو» و«كانم»، وغيرها من الممالك الإسلامية التي نشأت في إفريقيا جنوب الصحراء.

ومن تأثيرات الإسلام كذلك؛ الموروث الشعبي الذي يتعلق بالإصلاح الاجتماعي، مثل فكرة الملك «الخليفة» الذي يقيم الشرع والدين، ولعلّهم يعنون بذلك ما ورد في حديث الاثني عشر خليفة، الذي ورد في الصحيحين، عن جابر بن سَمُرَةَ قال: دَخَلْتُ مع أَبِي على النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَمِعْتُهُ يقول: «إِنَّ هذا الأَمْرَ لا يَنْقَضِي حتى يَمْضِيَ فيهم اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً»، قَالَ: ثُمَّ تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ خَفِيَ عَلَيَّ. قَالَ: فَقُلْتُ لأَبِي: مَا قَالَ؟ قَالَ: «كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ»[٢].

وفي هذا الباب تأتي القصة التي أوردها الشيخ محمود كعت صاحب (تاريخ الفتاش)، عن «الخليفة الحاج أسكيا محمد» ملك مملكة «سنغي» مع الإمام السيوطي، عندما قابله بمصر وهو في طريقه للحج، وكيف أنه أخبره عن عدد الخلفاء، وأن منهم خليفتين بالسودان، وأنه أحدهم»[٣].

وتأتي في هذا الباب أيضاً عقيدة «المهدي المنتظر» التي هي عميقة الجذور في إفريقيا، التي شهدت عدداً كبيراً من أدعياء المهدية، أشهرهم المهدي «محمد بن التومرت» (٤٨٥-٥٢٤هـ) مؤسس دولة الموحدين (١١٢١-١٢٦٩م)، ومحمد أحمد المهدي السوداني (١٨٤٣-١٨٨٦م)، وكانت تلك الفكرة سبب في هجرات كثير من الأفارقة من غرب إفريقيا إلى أواسطها وشرقها، طلباً لشهود المهدي المنتظر واتباعه[٤].

رابعاً: الإسلام والتحولات الاجتماعية في إفريقيا:

١- الانتشار السلمي للإسلام في إفريقيا:

في معظم إفريقيا جنوب الصحراء، لم يكن الفتح الإسلامي هو الطريق الممهد لانتشار

(١) نادية عبد الفتاح الباجوري، الحكايات الشعبية عند الهوسا في نيجيريا، دراسة في الأنثروبولوجيا الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، ٢٠١٥م، ص٧٦.

(٢) البخاري، رقم (٧٢٢٢)، ومسلم واللفظ له، رقم (١٨٢١).

(٣) محمود كعت التنبكتي، تاريخ الفتاش، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط١-٢٠١٤م، ص (٩٢، ٩٤).

(٤) من أشهر هؤلاء المهاجرين: خليفة محمد أحمد المهدي السوداني، عبد الله بن محمد تورشين، المشهور بـ «التعايشي»، الذي هاجر مع والده إلى السودان طلباً للقاء المهدي المنتظر قبل ظهوره، حيث ساد الاعتقاد لديهم أنه سيظهر في السودان.

الإســـلام في تلك المناطق، كما هو الشـــأن في شـــمال إفريقيا، بل إن غالـــب البلدان الإفريقية عرفت الإســـلام عن طريق الدعوة السلمية، فقد دخل الإسلام مملكة غانا الوثنية قبل أن يفتتحها المرابطون عام ١٠٧٦م، حيث يشـــير المؤرخون إلى المكانة العظيمة التي حظي بها المســـلمون في بلاط ملوك غانا، وإلى الوجود الكبير والمميز للجالية المســـلمة في «كُمبـــي صالح» عاصمة المملكة، حيـــث كان الحي الإســـلامي من أكثر أحياء المدينة تميزاً.

حتـــى إن البكري في (المســـالك والممالك) يشـــير إلى أنهم بلغوا مناصب كبيرة في البلاط الملكي، خاصةً في عهد الملك «بســـي» وخليفته «تنكامنين»، حيث كان منهم الوزراء والمستشارون، وأنه كان في قصر الملك مســـجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين، بل إن عدد المساجد في الحي الإسلامي بلغ اثني عشر مسجداً، وفي كل مسجد مدرسة للعلم، وبئر عذبة يحرثون بجنبها الفواكه والخضروات[١].

لقد كان لســـيادة الإسلام، في شمال إفريقيا والمغرب العربي، أثرها الكبير في هذا الانتشار الســـلمي في غرب إفريقيا، حيث سبقت قوافلُ التجار الجيوشَ إلى ما كان يُعرف في ذلك الوقت بـ«بلاد السودان»[٢]، فمنذ القرن الثاني الهجري بـــدأت القبائل العربية في التوغل جنوباً في بلاد الســـودان، ولم تقف الصحراء عائقاً أمامها، كما تدافع التجار المسلمون إلى تلك المناطق، يحملون بضائعهم النفيســـة المغرية بالنســـبة للأفارقة، من الأقمشـــة واللباس الفضفاض المميز، ومن الزجاج الملون، ومن التوابـــل البهارات وغيرها، وكانـــوا يحملون معهم أيضاً دينهـــم، وأخلاقهم، ومعاملتهـــم الطيبة، وكانـــوا يحملون معهم أيضاً علمهم ومعرفتهم بالقـــراءة والكتابة، وهو التميز الـــذي أهلّهم لنيل مكانة عاليـــة في المجتمعات الإفريقية.

وكان للدعـــاة والمصلحين الفضل في نشـــر تعاليم الإســـلام في إفريقيا، وتعليم الناس الدين وتصحيح عباداتهم وعقائدهم، كما كانوا يصحبون الملوك ويعلمونهم الفقه والدين، ويســـاعدون في صلاحهم، وقد لاحظ ذلـــك الرحالة الأوروبيون الذيـــن زاروا إفريقيـــا، حيث لاحظـــوا حضور شـــيوخ برابرة وعرب في قصـــور ملوك «كاجور» و«جولـــوف»، في الســـنغال الحاليـــة، يصحبون الأمراء ويلقنونهم الفقه، وقد حكى «فرانســـيس كولهو» عن ملك ســـالوم أنه «كان يتجول مع عدد كبير من الشيوخ البيض القادمين من تلمسان»[٣].

ويروي المؤرخون أن سلطان مقديشو خصّص داراً مرتبـــة ومجهزة لضيافة العلمـــاء والفقهاء الذين يفـــدون على مقديشـــو، وخصّص أخرى لإقامة طلاب العلم ورعايتهم والقيام بأمرهم[٤].

٢- احتـواء الإسـلام للثقافـات المحليـة الإفريقية:

المتأمل فـــي الطبيعة الســـلمية لانتشـــار الإســـلام في إفريقيا، والاتســـاع السريع لرقعة انتشـــاره، وتمدده المستمر حتى يوم الناس هذا، يلاحظ ســـهولة تقبُّل الإفريقيين لهـــذا الدين، وهذا الأمر يُشير إلى عناصر الاستيعاب الثقافي

(١) البكري، المسالك والممالك، (٣٦٧/٢).

(٢) «بـلاد السـودان»: مصطلح أطلقه العرب للدلالة على الأراضـي التي تقع جنوب الصحراء الكبرى، وتبدأ من سواحل المحيط الأطلسي في غرب القارة، وتنتهي بالنيل الأبيض في شرقها.

(٣) عبد القادر محمد سيلا، المسلمون في السنغال: معالم الحاضر وآفاق المستقبل، سلسلة كتاب الأمة- قطر، ط١- ١٤٠٦هـ، ص١٢١.

(٤) محمد عبد الله النقيرة، انتشار الإسـلام في شرقي إفريقية، ومناهضة العرب له - دار المريخ - الرياض، ص٢٧٤.

الكبيرة التي ينطوي عليها الإسلام بوصفه ديناً يرتكز على تثبيت الفطرة، ونفي ما لحق بها من انحراف، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، والمجتمعات الإفريقية، على الرغم من وقوعها في الشرك، ظلت تحتفظ بكثير من ميراث الفطرة، في رعايتها للعفة، والخُلق القويم، وتجانسها مع الطبيعة.

كل هذه العوامل جعلت الإسلام يشكل مؤثراً مهماً في الثقافة الإفريقية، وأدت به في نهاية الأمر إلى احتوائها واستيعابها بسهولة ويسر، بعد نفي ما أصابها من انحرافات تتمثل في الشرك بالله تعالى، وعبادة الوسطاء بينه وبين خلقه، والاعتقاد في الأساطير المتعلقة بتفسير نشأة الخلق، وتأثير الموتى، والسحر والكهانة... إلخ.

ولم يحدث الإسلام هزّات عنيفة في البنية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في إفريقيا، فقد ظلت معظم تقاليد الحياة الأسرية على صورتها العرقية لعدم تناقضها مع الثقافة الإسلامية، فيما عدا بعض العادات المتعلقة بالمبالغة في تعدد الزوجات أو زواج المحارم.

وكان لاهتمام المسلمين الأوائل الذين قدموا للبلاد الإفريقية، تجاراً كانوا أو دعاة وعلماء، بالجوانب الروحية والشعائرية، بجانب الصدق في المعاملات، أثره الكبير في جذب الأفارقة للإسلام، فضلاً عن التماسك الاجتماعي والوحدة والإخاء الذي تحمله الشعائر الإسلامية، كما في صلاة الجمعة والجماعة والحج والزكاة والصدقات.

٣- بعض مظاهر التحولات التي أحدثها الإسلام في المجتمعات الإفريقية:

أحدث الإسلام تحولات كبيرة في حياة المجتمعات الإفريقية، والتطور الأكبر هو إخراجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الإسلام، وبعد أن جلّى لهم حقائق الكون الكبرى التي كانت أسئلة ظلوا يبحثون لها عن إجابات فيما ينسجونه من أساطير، وما يبتدعونه من حكايات وأقاويل؛ ما هي حقيقة الوجود؟ ومن موجده؟ والهدف من الوجود؟، ما مركز الإنسان من هذا الوجود؟ وما علاقته بالموجودات من حوله؟

بالإضافة إلى ذلك؛ قدّم لهم الإسلام الهداية في التعامل مع كل هذه الحقائق، بعيداً عن الأساطير، والسحر والكهانة، بطريقة تخاطب العقل والوجدان.

وبجانب ذلك؛ أحدث الإسلام تحولات ونقلات كبيرة في النمط الاجتماعي والثقافي الذي كان سائداً في إفريقيا، ومن أهم تلك النقلات:

٣/١- من القبيلة إلى القومية:

كانت المجتمعات الإفريقية تعتمد على ما ورثته من أسلافها من تنظيمات اجتماعية، وكانت رابطة العشيرة والقبيلة هي الأساس في هذه التنظيمات الإفريقية، ولما جاء الإسلام، أوجد آصرة جديدة جمعت الأفارقة على غير النسب، هي رابطة العقيدة، بيد أن الإسلام لم يهدم رابطة العشيرة والقبيلة بل عزز مكانتها بما أضافه إليها من بُعد رسالي، وكان ذلك أدعى إلى توثيق روابطها مع القبائل الأخرى التي اجتمعت معها على الإسلام، مثل قبائل الفولاني التي تنتشر على نطاق واسع في غرب إفريقيا، والذين «رغم اختلاف أصولهم؛ فإنهم عُرفوا بعمق عقيدتهم الإسلامية، وإنجابهم العديد من المعلمين والدعاة، حتى أُطلق عليهم لقب «قبيلة الدعاة الإسلاميين» كونهم أكثر الشعوب مساهمة في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، إضافةً لكونهم عنصر الوحدة بين شعوب وقبائل غرب إفريقيا، رغم المحاولات التي بذلها الاستعمار

للقضاء عليهم»[١].

وفي مطلع القرن التاسع عشر الميلادي؛ تمكن الفولاني تحت قيادة الشيخ المصلح عثمان دان فوديو، من تجميع المسلمين في بلاد الهوسا، وتأسيس الدولة التي عُرفت باسم «خلافة سكتو الإسلامية».

ومثل قبائل الهوسا، التي حكمت منطقة جنوب النيجر وشمال نيجيريا، منذ القرن التاسع الميلادي حتى القرن الثالث عشر، حيث أسسوا سبع إمارات مشهورة، تُعد من أكبر القوميات الإسلامية في نيجيريا اليوم.

٣/٢- من البداوة إلى المدنية:

ومن أكبر النقلات، التي أحدثها الإسلام في الشعوب الإفريقية، أنه نقلها من البداوة، حياة مجتمعات الرعي والصيد والزراعة البسيطة، إلى حياة التمدن والحضارة، حيث أدى توافد التجار المسلمين المستمر إلى الأعماق الإفريقية، خاصةً في السودان الغربي، إلى وجود طرق ثابتة للقوافل التجارية، وكان من الضروري أن تتحول المناطق والقرى التي تقع في تقاطع طرق القوافل إلى مراكز تجارية كبيرة، الأمر الذي أسهم بشكل أو بآخر في تحويل النشاط الاقتصادي التقليدي لدى الإفريقيين، من الصيد والرعي والزراعة البسيطة إلى التجارة والصناعة.

وأدى ازدهار التجارة إلى تطور ونشأة مدن جديدة، ففي القرنين الرابع عشر والخامس عشر، على عهد دولة غانا، ازدهرت مدينة «أودغست»، فكانت محطة تجارية رئيسة، ومدينة مزدهرة بأسواقها تحظى بأجود أنواع الذهب.

وعلى عهد دولة مالي «الإسلامية» ظهرت مدن مثل: «ولاتة» و«سجل ماسة» و«تكدا»[٢]، وغيرها من الحواضر في الغرب الإفريقي.

وكذلك الأمر بالنسبة لشرق إفريقيا، يقول بازل دافدسون «ولكن الذي لا يشك فيه المؤرخون، هو أن القرن الحادي عشر شهد عند ختامه كثيراً من مراكز التجارة على طول الساحل شماله وجنوبه، تنمو وترتقي إلى مدن يحكمها عرب مسلمون خلص، أو عرب سواحليون، أو جماعات متفرقة من السواحليين، ويعيش فيها مزيج من هؤلاء جميعاً، وكان سلطان الولاة يمتد جنوباً حتى «سفالا» أكبر الموانئ التجارية في الشطر الجنوبي، تمتد وراء سلسلة الهضاب الروديسية»[٣].

وبمجيء القرن ١٦ الميلادي ازدهرت الحياة الإسلامية في إفريقيا، وانتشرت حواضر التعليم في كلٍّ من «تمبكتو» و«جينيه» و«سكتو» في الغرب، و«هرر» و«سوفالا» و«ممبسة» و«زنجبار» و«زيلع» في الشرق، و«كانم» و«برنو» و«ودّاي» و«باقرمي» في الوسط، وتوثقت الصلة بين البلاد الإفريقية والحواضر الإسلامية في الحجاز والمغرب ومصر والسودان وتونس، وغيرها.[٤]

٣/٣- نمط القيادة:

تحول نمط القيادة التقليدي الذي كان شائعاً لدى القبائل الإفريقية، حيث كان زعيم

(١) مبارك بن الصافي جعفري، العلاقات الثقافية بين توات والسودان العربي خلال القرن ١٢هـ، دار السبيل للنشر والتوزيع- الجزائر، ط١-٢٠٠٩م، ص٨٢.

(٢) امتثال الأمين محمد الحاج، أثر التجار المسلمين في انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا، أطروحة ماجستير في التاريخ، جامعة الخرطوم، ٢٠٠٦م، ص (٤٨-٤٩)، بتصرف.

(٣) بازل دافيدسون، إفريقيا تحت أضواء جديدة، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، ص (٢٧٨-٢٧٩).

(٤) الصادق أحمد آدم، نشأة الممالك والدويلات الإسلامية في إفريقيا: مملكة وداي نموذجاً، من أبحاث المؤتمر الدولي: الإسلام في إفريقيا، الخرطوم- نوفمبر ٢٠٠٦م، جامعة إفريقيا العالمية- جمعية الدعوة الإسلامية- وزارة الإرشاد والأوقاف السودانية.

القبيلة ومعه الساحر أو الكاهن هم المسيطرين على السلطة الزمنية والروحية في القبيلة أو المملكة. ولكن بظهور الإسلام، ودخول الأفارقة فيه، ونشوء الممالك الإمبراطوريات الإسلامية، صار الملك أو السلطان هو رمز السلطة الزمنية، ويعتمد اعتماداً أساسياً على الفقهاء والعلماء، ويهتم بجلبهم إلى مملكته من كل مكان، وجعلهم موضع استشارته.

نلاحظ ذلك بصورة كبيرة في سير بعض الأمراء الملوك الصالحين، مثل ملك السنغاي أسكيا محمد، الذي قال عنه صاحب (تاريخ الفتاش) «وجعَلَ للقضاة إذا جاؤوه يأمر بِبَسط حصير الصلاة لهم، وجعَلَ للمَزَامِين أن يجلسوا عن يساره، ولا يقوم لأحدٍ إلا للعالِم والحُجّاج إذا قَدِمُوا من مكة»[١].

بل أصبح العلماء الدعاة المصلحون الذين قاموا بحركات جهادية هم قادة الدول وأمراءها، أمثال الشيخ «ألمامي عبد القادر كن» (١٧٢٨–١٨١٠م) في منطقة «فوتاتورو»، والشيخ «عثمان دان فودي» (١٧٤٥–١٨١٧م) في نيجيريا، والشيخ «أحمد لوبو الماسيني» (١٧٧٥–١٨٤٤م) في منطقة ماسينا في مالي، والحاج «عمر الفوتي» (١٧٩٤–١٨٦٤م) في منطقة فوتا بالسنغال.

٣/٤- أنماط السلوك:

ولقد شمل التأثير الثقافي للإسلام كثيراً من أنماط السلوك لدى المجتمعات الإفريقية، فأحدث فيها تحولات واضحة، وبصورة جذرية، كتغيير نظام «الانتساب للأم» الذي كان سائداً في معظم المجتمعات الإفريقية، خاصة مجتمع إمبراطورية «سنغاي»، حيث كان الرجل يُنسب لعائلة أمه، بل يحظى (الخال) بحقوق أكثر من حقوق الأب[٢]، وعلى هذا الأساس كان يتم التوريث في الملك، على نحو ما كان عليه الحال في ممالك النوبة في سودان وادي النيل، وبعد انتشار الإسلام تغيّر هذا النظام وحلّ محله نظام الانتساب للأب.

كما تلاشت الأنظمة الطبقية التي كانت سائدة في كثير من المجتمعات الإفريقية، وكذلك انتشرت الأسماء العربية بشكلٍ كبير في إفريقيا المسلمة.

وحرّم الإسلام تحريماً قاطعاً كثيراً من العادات التي كانت ترتبط بالموت في المجتمعات الإفريقية، مثل دفن متعلقات الميت معه، أو في بعض الأحيان دفن الأحياء مع الميت، وغيرها من الممارسات الوثنية مثل تقديم القرابين، وإراقة الدماء للتواصل مع للموتى... إلخ.

ومن الظواهر البارزة التي أشارت إليها المصادر الإسلامية ظاهرة انتشار الحجاب بين النساء، خاصة في الحواضر الإسلامية، يصف الوزان الحياة الاجتماعية في تنبكتو فيقول: «ما زالت نساء المدينة متحجبات باستثناء الجواري اللائي يبعن كل المطعومات»[٣].

وفي ممباسا في شرق إفريقيا تزاوج الوافدون العرب الأوائل مع السكان المحللين، ونشروا الإسلام بينهم، لينتج عن ذلك التمازج الثقافة السواحيلية الإسلامية المهيمنة في مُمبَسَّا، وذلك ظاهر في مساجدها الكثيرة، وأزياء أهلها، حيث ترتدي نساء المسلمين الحجاب الإسلامي، وهو عادةً يكون أسود اللون، ويُطلق عليه اسم

(١) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص٩٢.

(٢) عبد الله عيسى، أثر الإسلام على المجتمع الإفريقي خلال القرن ١٠هـ/ ١٦م مملكة سنغاي نموذجاً، دراسة منشورة بمجلة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، ع٣٦، حزيران ٢٠١٥م.

(٣) الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، ط٢-١٩٨٣م، ص (١٦٥، ١٦٦، ١٦٧).

«بويبـــوي»، وبعضهن يلبســـن النقـــاب، أما بقية النساء فيلبسن اللباس التقليدي، وهو عبارة عن قميص ذي ألـــوان ونقوش فاتحة، ومصنوع عادة من القطن يُسمى «كانغا».

كما انتشـــرت الأزياء العربية وسط الرجال بشـــكلٍ كبير، وبشـــكل خاص تأثر مسلمو غرب إفريقيا بالنمط المغربي في اللباس[1].

٣/٥ - الرافد الحضاري:

لقد كان أثر الحضارة الإسلامية واضحاً جدّاً في المجتمعات الإفريقية، ويتمثل فيما أحدثه من نقلات كبيرة، بنشـــوء الممالك والإمبراطوريات الكبرى، مثل مملكة «مالي» التي قامت على أنقاض «إمبراطورية غانا الوثنية»، ومملكة «سنغاي» التي خلفت «مالي»، وفي الإمارات والممالك الإسلامية التي نشـــأت في السودان الأوســـط، مثل «برنو» و«كانم»، و«دارفور»، و«الفونج» في ســـودان وادي النيل، وصولاً إلى الممالك والإمارات الإسلامية التي نشأت فيما كان يُعرف باسم «ساحل الزنج» في شرق إفريقيا.

وتجلى الامتداد الحضـــاري بصورة واضحة في كل تلك الدول الإسلامية، من حيث الارتباط ببقيـــة أجـــزاء العالم الإســـلامي، واســـتقبال المؤثـــرات الثقافية بصورة مســـتمرة، والانفعال بها، بل والإســـهام فيها بشكلٍ كبير، يشهد بذلك العلمـــاء الذين أنجبتهم الحواضر الإفريقية، مثل الســـعدي، وأحمد بابا التنبكتي، ومحمود كعت، والزيلعـــي، وغيرهم مـــن العلماء الـــذي رفدوا الثقافة الإســـلامية بالمؤلفـــات القيمة، وتزخر المكتبات الإفريقية فـــي تنبكتو وغيرها بالآلاف من المخطوطات الإسلامية النادرة، التي ما تزال حتى اليوم تجذب اهتمام الباحثين.

٤- العوامل المساعدة على التحول الاجتماعي:

ساهمت عدة عوامل فيما أحدثه الإسلام من تحولات اجتماعية في إفريقيا، ومنها:

٤/١ - الهجرات:

فعلى فتـــرات متفاوتة هاجـــرت مجموعات كبيرة من المســـلمين عرباً وبربـــر، وغيرهم من الأجناس، إلـــى إفريقيا، حملوا معهم الإســـلام وثقافته إلى إفريقيا، كما حملوا العلم والمعرفة.

وغالبـــاً ما كانت تلك الهجرات جماعية، مثل هجرات القبائل والأسر التي وفدت من الجزيرة العربية، مثل هجـــرات بني مخزوم، وهجرات آل الجلندي، وما يُعرف بهجرات «الإخوة السبعة» من قبيلة الحارث العربية، شـــرق إفريقيا، وهجرات القبائـــل البدوية إلى الســـودان فـــي القرن ١٣ الميلادي.

وأحيانـــاً تكون الهجـــرات هجرات من داخل إفريقيـــا، مثل هجرات قبائل الفولاني من أقصى غرب إفريقيا إلى أواســـطها، وهجرات ما يُعرف بـ«عرب الشوا» من شرق إفريقيا إلى بحيرة تشاد.

وأحيانـــاً تأخـــذ الهجـــرات شـــكلاً فردياً، مثـــل هجرات العلماء والدعـــاة الذين وفدوا إلى الممالـــك الإفريقية بغرض نشـــر العلم والدعوة للإسلام، واستقروا بها.

٤/٢ - الحج:

الحج يعتبر من أكبـــر المؤثرات، وقد عُرف المســـلمون الأفارقة بشـــغفهم بزيـــارة الأماكن المقدســـة، ويكتســـب الحاج مكانـــة كبيرة في المجتمعات الإفريقية، وقد أشـــرنا إلى ما نقله صاحـــب (تاريخ الفتاش)، من أن الملك أســـكيا محمد لم يكن يقوم لأحد إلا للعلماء أو الحجاج!

وتُعتبـــر الرحلة للحج مـــن أعظم المآثر في إفريقيا، حتى اشتهرت فيها طرق معروفة «بطرق الحج»، عمرت بسببها مدن وقرى كانت تقع على

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة ١٩٨٥م، (٢٩٩/٥).

الطريق، مثل طريق «تنبكتو- تاوديني- المغرب»، فساهمت في نشر الإسلام والمعرفة، حيث كان كثير من الحجاج لا يعودون إلى أوطانهم، ويستقرون في بعض محطات الطريق، وهذا كثير على وجه الخصوص عند قبائل الفولاني.

واشتهرت بعض رحلات الحج بشكل خاص، مثل رحلة «موسى منسا» أحد ملوك مالي، ورحلة «الملك أسكيا محمد» ملك سنغاي، التي لقي فيها الإمام السيوطي بمصر، ومنها كذلك رحلة «الحاج عمر الفوتي»[١].

٤/٣ - التعليم:

نشطت في المدن الإسلامية التي نشأت في إفريقيا حركة علمية واسعة، وانتشرت الكتاتيب والمدارس التي كانت تعلم الناس أصول الشريعة، وتنشر الثقافة العربية الإسلامية، وجلس للتعليم في تلك الحواضر علماء كبار، وفدوا إليه من أنحاء العالم الإسلامي المختلفة أو من داخل إفريقيا، وقصدهم الطلاب من كل حدبٍ وصوب.

وعلى سبيل المثال: كانت تمبكتو مركز الثقافة العربية الإسلامية الأول في بلدان السودان الغربي، خلال القرن ١٦ الميلادي، وقد تكاثر علماؤها وقصدها طلاب العلم من أصقاع عديدة، حتى أبناء الوجهاء الوثنيين من بلاد (الموسى)، كان يبعث بهم آباؤهم ليتعلموا في تمبكتو[٢]، ففي السودان الغربي اشتهر من العلماء، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (١٤٢٥-١٥٠٤م)، الذي وُصف بـ«خاتمة المحققين»[٣]، الذي عاش حياته متنقلاً ناشراً للعلم والمعرفة، ومباشراً للجهاد، وناصحاً للملوك والسلاطين ومفتياً، ومعلماً لأحكام الشرع وقواعد الدين، ومصنفاً للتصانيف في فنون العلم الشرعي.

أما شرق إفريقيا؛ فقد نزح إليها كثير من الفقهاء والعلماء والصوفية، من بلدان المشرق الإسلامي، ووجدوا ترحيباً وحفاوة من حكام الإمارات الإسلامية في ساحل إفريقيا الشرقي، مما شجعهم على البقاء ونشر العلم، مثل الشيخ عمر الرضا أبادير الهرري، مؤسس هرر، الذي جاء في حوالي ١٢١٦م (٦١٢ هجرية)[٤]، من الحجاز في كتيبة من الأشراف، وحلّ بأرض هرر بالحبشة، معه العالم المشهور الشيخ يوسف الكونين الشهير بـ(آو برخدلى)، وهو أول من قام بتهجية الحروف العربية شفوياً باللغة الصومالية.

خامساً: تجدد التأثير الإسلامي في المجتمعات الإفريقية المعاصرة:

في العصر الحديث؛ كان للعلماء والدعاة، وزعماء الطوائف والطرق الصوفية، دور كبير في التصدي للاستعمار الأوروبي ومقاومته، وتعرض بعضهم للنفي والإبعاد في سبيل المحافظة على الهوية الإسلامية لبلادهم.

وشهدت حقبة الثمانينيات، من القرن الماضي، إقبالاً إفريقياً على التدين والعلم الشرعي، واهتماماً دعوياً - عربياً وإسلامياً- بإفريقيا، وتبلورت آليات عمله، عبر منظومة متكاملة من الدعاة الأفراد، والمنظمات المدنية، والمؤسسات الأكاديمية، التي بذلت جهوداً مقدرة وفاعلة.

(١) آدم بمبا، طريق الحج بغرب إفريقي: قراءة تاريخية في الأثر الحضاري لرحلة الحاج عمر الفوتي، ورقة مقدمة في مؤتمر طرق الحج في إفريقيا، جامعة إفريقيا العالمية الخرطوم (٢٨-٢٩ نوفمبر ٢٠١٦م).

(٢) عبد القادر زبادية، دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص١٢٧.

(٣) نعته بذلك ابن مريم المديوني، في كتابه البستان، وقد كان معاصراً للمغيلي.

(٤) هرر المدينة التاريخية المحصنة في إثيوبيا، مقال منشور بموقع أفريكا عربي: http://afrikaar.com/16237/ha-rar-ethiopia

وعلى الرغم من أنها لم تغطِ أرجاء القارة السمراء كلها، ولم تصل إلى الدرجة المكافئة للحشد التنصيري الكنسي، فإنها استطاعت أن تكون رقماً حقيقياً، غيَّر كثيراً في معادلة سباق الهوية في إفريقيا.

إن جهود الدعوة الإسلامية في إفريقيا أثمرت أجيالاً من الشباب المسلم المتعلم والواعي، الذي وصل إلى مواقع مسؤولية مهمة في كثير من دول الشرق والغرب الإفريقي، كما أوجدت مثابات علمية يؤوب إليها المسلم الإفريقي في عمله، وفتحت مسارات جديدة للعمل الدعوي لم تكن مطروقة، مثل المناظرات في الساحات العامة، والإذاعات الموجهة، ومثل المدارس الإسلامية المفتوحة لأبناء القارة... إلخ.

كما صنعت تياراً واضحاً يسعى نحو تدعيم الهوية الإسلامية، كما هو الحال في كثير من الدول التي اتجهت نحو (الثنائية اللغوية)، بجعل اللغة العربية لغة مساوية للغة الاستعمارية الغربية، التي كانت منفردة بالهيمنة وتشكيل الهوية ردحاً من الزمن.

وفي دول إفريقية أخرى؛ قامت الدعوة الإسلامية بتدعيم القيم الأخلاقية، التي تبلورت في تيار قوي يرفض أشكال الانحلال الاجتماعي، والإباحية والفوضى الجنسية، التي يروّج لها الغرب بتياراته ومنظماته.

وتميّزت بعمق صِلاتها بمحيطها الإسلامي والعربي، حيث يدرس الطلاب الأفارقة العلم في جامعات عدد من بلدان العالم الإسلامي، وكان لخريجي الجامعات الإسلامية من الشباب الأفارقة دور كبير في قيادة المجتمعات الإسلامية وتنميتها، ونشر الوعي الإسلامي فيها، يشاهد هذا الأثر بوضوح في انتشار المدارس العربية الإسلامية، والسعي بجد واجتهاد لانتزاع حقوق المسلمين في تعليم متساوٍ مع التعليم باللغات الاستعمارية، أو التعليم الكنسي، فكثير من المدارس العربية لم تكن تحظى بالاعتراف الكافي، الذي يجعل خريجيها على قدم المساواة مع نظرائهم من خريجي المدارس الأخرى، ولكن جهود خريجي الجامعات والمعاهد العربية استطاعت أن تنتزع هذا الحق في كثير من الدول، وذلك بابتكار تجارب مميزة، مثل المدارس المزدوجة، التي تعتمد التعليم العربي والإسلامي، وتُدخل معه التعليم باللغة الاستعمارية.

هذا بالإضافة إلى الجامعات والمعاهد التي أُنشئت في البلدان الإفريقية، والإذاعات ومحطات التفلزة، مما يدعم تقوية الثقافة الإسلامية ونشرها.

وقدّمت تجارب يُحتذى بها في الجوانب الاقتصادية، مثل تجربة «النوافذ المصرفية الإسلامية»، التي ازدهرت في كل من نيجيريا، وتنزانيا، وكينيا.

وبالجملة؛ يمكن أن نقول بأن الجهود الإسلامية المعاصرة أثمرت ثماراً طيبة فيما يتعلق بالحفاظ على الهوية الثقافية للمسلمين، وفي الوقت نفسه كان لها تأثيرها الكبير في مواطنيهم من غير المسلمين، الذين تأثروا بدرجة كبيرة بالثقافة الإسلامية، وينطبق هذا الأمر حتى في البلدان التي يشكل المسلمون فيها أقلية، مثل ملاوي، حيث تأثر السكان غير المسلمين بالثقافة الإسلامية، وصاروا يقلدون المسلمين في كثير من العادات الإسلامية، مثل الختان، والطعام الحلال (الذبائح على الطريقة الإسلامية)، بجانب انتشار الأزياء المحتشمة في محاولة للتشبه بالحجاب الإسلامي[1] ■

(١) خالد أبو بكر، أثر الإسلام على مظاهر الحياة المختلفة بمالاوي، ترجمة مصطفى مهدي، مقال منشور بموقع الألوكة، نقلاً عن موقع onislam: https://www.alukah.net/sharia/0/74287